خرائب الشام

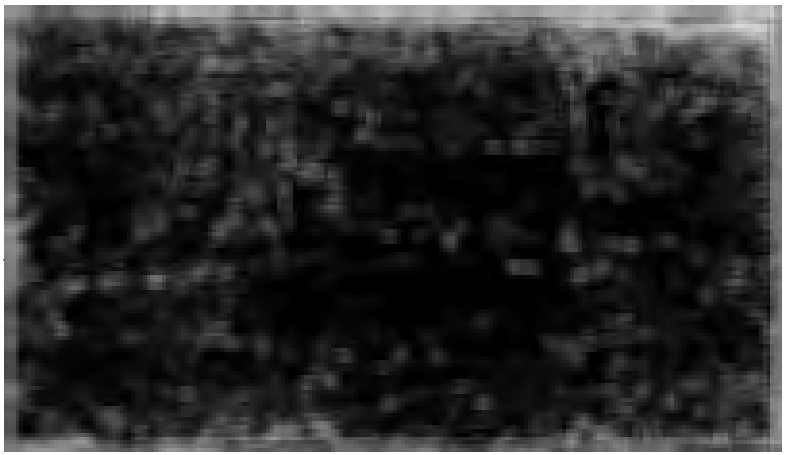

مدينة بُصرى

فتحنا تقويم البلدان لنرى ما يقولهُ ابو الفداء عن هذه المدينة التي كانت عاصمةً من العواصم الكبيرة ومسقط رأس القائد العربي الذي لبس الارجوان وصار امبراطورًا على مملكة الرومان قبل الاسلام بنحو اربع مئة عام فرأيناهُ يكتفي بقولهِ "في العزيزي بصرى مدينة كورة حوران وهي مدينة ازليَّة مبنيَّة بالحجارة السود مسقَّفة بها وفيها سوق ومنبر وهي من ديار بني فزارة وبني مرة وغيرهم ولها قلعة ذات بناء متين وبساتين وبناء قلعتها شبيه ببناء قلعة دمشق . قال ابن سعيد بصرى قاعدة حوران وهي على اربع مراحل من دمشق" انتهى ما نقلهُ ابو الفداء في كتابهِ تقويم البلدان . وذكر الزبيدي بصرى في تاج العروس فقال انها بلد بالشام بين دمشق والمدينة اول بلاد الشام فتوحًا قال الشاعر

ولو اعطيت مَن ببلاد بصرى وقسرين من عَرَبٍ وعُجْمِ

وينسب اليها السيوف البصرية وانشد الجوهري للحصين بن الحمام المري

صفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطردًا من نسج داود احكما

ثم فتحنا الطبري لنرى ما يقولهُ في فتوح الشام ولو حشَّاهُ النسَّاخ بما ليس منهُ فوجدناهُ يقول ان بصرى كانت مدينة حصينة جدًّا في زمن الفتح آهلة بالخلق عامرةً بالناس وكان العرب يقصدونها يضائعهم وتجارتهم من اقصى اليمن وبلاد الحجاز فاذا كان في ايام الموسم ينصب لبطريقها

كرسي يجلس عليهِ ويجتمع الناس اليهِ يستفيدون من علمهِ وحكمتهِ وكان صديقاً لابي بكر الصديق . وجَّهَ اليها ابو عبيدة بن الجرَّاح شرجيلَ بن حسنة في اربعة آلاف فارس فنشبت الحرب بينهُ وبين اهلها وخرجوا اليهِ باثني عشر الف فارس من الروم وكادت الدائرة تدور عليهِ لولا ان قدم لنجدتهِ خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن ابي بكر بجيوش المسلمين ولامهُ خالد قائلاً أما علمتَ ان هذه ميناء الشام والعراق وفيها عساكر الروم وبطارقتهم فكيف غرَّرت بنفسك وبمن معك من المسلمين. ثم ان بطريق المدينة واسمهُ روماس خان قومهُ وامر غلمانهُ بثغر السور ففتحوا فيهِ باباً خرج منهُ واتى خالداً وادخل المسلمين الثغرة وفتح لهم ابواب المدينة فاستولوا عليها

- اما الامبراطور العربي المشار اليهِ آنفاً فاسمهُ فيلبس ذكرهُ ابن خلدون باسم فلفش وقال انهُ ابن اولياق بن انطونيش ولِيَ سبع سنين وهو اول من تنصَّر من ملوك الروم . ولم يذكرهُ المسعوديّ او ذكرهُ باسم يعربس اي ان واحداً من هذين المؤرخين ذكر اسم فيلبس والآخر ذكر لقبهُ واكتفيا بذلك . والمعروف من امر هذا الامبراطور الآن ان اسمهُ يوليوس فيلبس ويلقب بفيلبس العربي وهو من اهالي بصرى انتظم في سلك الجيش الروماني وارتقى فيهِ حتى صار قائد جيوش غرديانس في المواقع التي جرت بين الروم والفرس ثم اغرى الجنود بقتل امبراطورهم فقتلوهُ ونادوا بهِ امبراطوراً بدلاً منهُ وكان ذلك سنة ٢٤٤ للميلاد . فاهتمَّ بامر بصرى مسقط رأسهِ وجعلها عاصمة واعطاها حقوق العواصم الرومانية . ثم ثارت الجنود عليهِ فقتل قرب ڤرونا سنة ٢٤٩ . وذكر يوسيبيوس انهُ كان مسيحياً واثبت ايرونيموس ذلك وكان لهُ ابن اسمهُ فيلبس ايضاً قُتل معهُ ويلقَّب فيلبس الثاني لان اباهُ اشركهُ معهُ في الملك

واما مدينة بصرى فقديمة جدًّا اقدم من الاسكندرية لان الاسكندر المكدوني وجدها عامرة حصينة لما فتح الشام وبقيت في يد خلفائهِ من ملوك الشام الى ايام انطيوخُس ديونيسوس فاستولى عليها ملك من ملوك العرب ثم اخذها الامبراطور طراجنس سنة ١٠٥ وبنى فيها المباني الفخيمة واباح لاهلها ان يسموها باسمهِ وجعلها كولونية رومانية وبقيت سنين كثيرة بعدهُ من أهل المدائن الشرقية ومبادة تجَّار العرب وجُعل لها تاريخ خاص مثل تاريخ الاسكندر والتاريخ المسيحي والهجري يبتدئ من تلك السنة اي سنة ١٠٥ وهو التاريخ البصري المشهور الذي ارَّخ بهِ الفرس زماناً طويلاً

اما مجدها السالف وما صارت اليهِ بعد الفتح فتدلُّ عليهما الصورة التي في صدر هذه المقالة حيث ترى العُمُد العظيمة ماثلة كأنها تستشهد الزمان على ما كان لها من المجد والعزة والخرائب منبثةً حولها تندب ما حلَّ بها من الدهر وابنائهِ . وابلغ من ذلك واوضح وصف

الدكتور بورتر الانكليزي الذي زارها منذ نحو اربعين سنة وكتب عنها ما ترجمتهُ ملخصاً

" اقمت في بصرى ثلاثة ايام. خرائبها كثيرة لا ترى في يوم او يومين محيطها خمسة اميال لها سورٌ عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لا احصن منها في كل بلاد الشام . تبيَّنتُ في هذه المدينة خرائب مشهدين وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكبيرة وهي تدلُّ على ان اهالي بصرى كانوا على جانب عظيم من الغنى وحسن الذوق لان بعض هذه المباني يصلح لأن تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن

ولم يكن البحث عن هذه الآثار بالامر السهل لكثرة الانقاض وتراكمها بعضها فوق بعض. صعدت على جدار لانسخ كتابة يونانية فوقع الجدار بي ولو لم اثب عنهُ بسرعة لدُفنت تحت حجارته

كان في بصرى في زمن عزها مئة الف نفس ولما زرتها لم اجد فيها سوى عشرين عائلة تسكن بعض الخرائب القديمة قرب القلعة وما بقي من المدينة خراب لا ساكن فيهِ . وحول المدينة ينابيع ومصانع كثيرة يأتيها العرب احياناً يسومون فيها انعامهم وينهبون القوافل التي تمرُّ بهم ولم ينجُ منهم الاَّ باستئجارنا اخا شيخهم دليلاً لنا

كانت بصرى احصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن قسمت الباقي من سورها فوجدت ارتفاعهُ ٣٠ قدماً وثخنهُ ١٥ قدماً وفيهِ ابراج مربعة على ابعاد متساوية . وكان طول المدينة داخل السور ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ضواحي كثيرة المباني ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمرُّ في وسطها لهُ بابان جميلان على طرفيهِ وشوارع رحبة تقطعهُ على زوايا قائمة. ما اكبر الفرق بينها وبين الشوارع التي ابقاها العرب بعد الفتح بين بيوتهم. تلك رحبة مستقيمة تحفُّ بها المباني الفخيمة وهذه ضيقة متعوجة تحيط بها الاكواخ الحقيرة منتزعة من المباني القديمة . تجد قصرًا رومانيًا بديعاً او هيكلاً يونانيًا فخيماً وبلصقهِ دكاكين العرب الحقيرة وقد مدَّ الخراب مطارهُ على الفريقين

ولقد يتعب القارئُ اذا اردت ان اصف لهُ كلما رأيتهُ هناك كما تعبت انا من البحث عنهُ لاني رأيت ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح . وركام الانقاض تدل على ما مرَّ بهذه المدينة من العبَر وما تقلَّب عليها من الازمان كما تدل طبقات الارض على العصور الجيولوجية. هناك ترى بيوت الاقدمين التي كانت ابوابها وسقوفها من الحجر وكان يسكنها الرفائيون قبل مجيء ابرهيم الخليل الى بلاد الشام وفوقها هياكل اليونان والرومان وكنائس المسيحيين . رأيت كتابة على حجر يقال فيها

ان الهيكل جعل كنيسة على اسم القديس يوحنا ودخلت هذا الهيكل او هذه الكنيسة فرأيت انهُ جُعل جامعاً وكتبت عليهِ كلمة الشهادة

من اول المباني التي دخلتها القلعة مررت في طريقي اليها بقوس النصر التي اقيمت للقائد فيلبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والقلعة في جنوبي المدينة خارج اسوارها كبيرة جدًّا ولا تزال جدرانها وابراجها والخندق الذي حولها سليمة واما داخلها فخراب يباب في اسفلها صهاريج كبيرة ومخازن وفوقها غرف كثيرة وفي وسطها مشهد قديم قائم على عمد وقناطر يرى الجالس فيهِ المدينة وما حولها من الارباض . والمشهد نصف دائرة قطرهُ ٢٧٠ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية والظاهر انهُ بني لتسلية الجنود الرومانية حينما كانت بصرى مقرهم . وفي القلعة برج شاهق صعدت الى قنتهِ ورأيت منهُ الطرق التي كانت متفرعة من بصرى وممتدة الى كل المدن المجاورة في خطوط مستقيمة واحدة تصل الى اذرع وواحدة الى السويداء ودمشق وواحدة تجري في الشمال الغربي بين جبال باشان وواحدة الى القُرَيَّة وواحدة الى قلعة صلخد . والدلائل كلها تدلُّ على ان البلاد حول بصرى الى ما يمتد اليهِ النظر بالتلكوب كانت عامرة آهلة بالسكان كثيرة المدن والمصانع في اطيب بقاع الارض ماء وهواء وهي الآن قفر بلقع

ثم اخذنا الدليل الى كنيسة كبيرة وهي كنيسة بصرى المشهورة في التاريخ فرأيتها مبنية في شكل صليب يوناني وفوق بابها كتابة يقال فيها ان يوليانوس رئيس اساقفة بصرى بناها سنة ٥١٣ تذكاراً للشهداء سرجيوس وباخُس وليونتيوس . وقال الدليل انها كنيسة الراهب بحيراء النسطوري المشهور في كتب العرب . وعلى مقربة من الكنيسة جامع كبير يقال ان الخليفة عمر بن الخطاب بناهُ سقفهُ قائم على اعمدة كبيرة بينها سبعة عشر عموداً من الرخام الابيض وعلى اثنين منها كتابة تدلُّ على ان اصلهما من كنيسة ولعلهما كانا قبل الكنيسة في جامع يوناني

وسرنا الى الباب الغربي في طرف الشارع الكبير فوجدناهُ قنطرة رومانية واسعة مزخرفة القائمتين وامامها بيت الديدبان بناؤهُ مثل بنائها وقفت هناك انظر من هذا الباب واري ركام الانقاض والجدران المتصدعة ووراءها قوس النصر كانها اقيمت تذكاراً للدمار لا للنصر وحول المدينة قفر بلقع لم ارَ ما يماثلهُ خلاءً الاَّ حول تدمر" انتهى كلام الدكتور بورتر

وكان شرقي بصرى حوض للماء طولهُ ٣٩٠ قدماً في مثلها عرضاً وعمقهُ ١٥ قدماً والى جنوبيها حوض آخر طولهُ ٥٣٠ قدماً وعرضهُ ٤٢٠ قدماً وعمقهُ ٣٠ قدماً والى غربيها حوض اكبر منهما طولهُ ٥٦٠ قدماً وهذه الحياض مملوَّة الآن بالردم والانقاض

هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب والزلزلة التي حدثت في اواسط القرن الثاني عشر اليد الطولى في تخريب مبانيها اما ضعفها فابتدأ من حين خربت البلاد التي حولها

ماهية الفلسفة

كان علماء اوربا في الثلث الاخير من القرن الماضي يكرمون الفلسفة كأنها ربّة العلوم كلها وكانت دور العلم في المانيا قاعدة العلوم العليا غاصّة بالطلبة يسمعون اقوال فلاسفتها ويقبلونها كأنها وحيٌ مُنزَّل . وكثر البحث الفلسفي في كل مكان واصحابهُ يحاولون حل المسائل الكبرى مسائل الحياة . واشتاق الناس الى كشف الغوامض واشتدَّ بهم هذا الشوق حتى لم يصبروا على البحث في امور الكون بالتأني فاكتفوا بالاوضاع الفلسفيَّة الباحثة عمَّا وراء الطبيعة

ويتضح ما كان للفلسفة من السطوة على عقول الناس في ذلك العصر من قول فردرك وشر الذي قال ان كل قوى الشبان كانت تصرف الى حل المسائل العويصة ولم يكن الشاب يحسب انهُ بلغ اشدَّهُ ما لم يفهم حقيقة حريَّة الارادة والقضاء والقدر وإلاَّ فلا يحق لهُ ان يتزوَّج

ذلك العصر كان عصر الفلسفة الذهبي لكنهُ كان حاملاً في ارداننه بزور انحلاله . فان الفلاسفة انكبار مثل نختي وشلنج وهيجل حدَّدوا الفلسفة بانها تركيب تصوُّري للكون من مبادئ اولية اكتشفتها بعض العقول الذكيَّة . وجروا مجرى الفيلسوف سبنوزا في استنتاج نتائج عدوها لازمة من اوليات حسبوا ضرورية واغمضوا عيونهم عن شهادة الحواس وحسبوا انهم يستطيعون تعليل المحسوسات بانها نتائج لازمة عن بعض المبادئ الاوليَّة . وقالوا ان لا قيمة للاختبار من هذا القبيل لان غاية ما يستفاد منهُ تحقيق الاستدلال الفلسفي بل ان شلنج انكر عليهِ هذه الفائدة وقال ان الاستنتاج العقلي لا يحتاج اثباتهُ الى اختبار مادي لانهُ ثابت لذاتهِ فان كان الاختبار لا يتطبق عليهِ فالخطأ في الاختبار لا فيهِ . وهيجل لم يتطرَّف الى هذا الحد في انكارهِ فائدة الاختبار لكن اعتمادهُ الاكبر كان على الاستدلال العقلي . وكان اولئك الفلاسفة يحسبون ان لا حدَّ لما يدركهُ العقل فهو يدرك الاوليات كلها بالبداهة ثم يعلم ما يبنى عليها بالاستدلال المنطقي وعلى ذلك بنى نختي وشلنج وهيجل فلسفتهم فجاءت بناء عظيماً فخيماً ولكن لا اساس لها في الارض وما لا اساس لهُ في الارض يتلاشى في الهواء

وبينما كان الفلاسفة الالمانيون واتباعهم يبرهنون بالاقيسة المنطقية ما يجب ان يكونهُ العالم اخذ علماء الطبيعة يحاولون ان يعرفوا ما هو العالم واذا بصفير الآلة البخارية ايقظ اهل